

دراسة عن الآراميين في سورية القديمة

د.علي أبو عساف

- كتاب جديد عنوانه «The Aramean in Ancient Syria» وهو بالإنكليزية والألمانية. وقد ألفه مجموعة من الباحثين يعملون في الجامعات الآتية:
- ١- «Angelika Berlejung أنجليكا برليونك» جامعة لينك ألمانيا وتعمل الآن في جامعة «Stellenboisch شتلين بوشن» جنوب أفريقيا.
 - ٢- البروفسور الدكتور «Dominik Bonatz» الجامعة الحرة برلين، ألمانيا.
 - ٣- البروفسور الدكتور «Aljandro Botta ألياندرو بوتتا» جامعة بوستن الولايات المتحدة.
 - ٤- البروفسور الدكتور «Holzer Gzella هولجر جزيلا» جامعة لايدن هولاند.

- ٥- البروفسور «John F. Healey» جامعة مانشستر المملكة المتحدة.
- ٦- الدكتور «Dagmar Kuhin» جامعة توبنكن ألمانيا.
- ٧- البروفسور الدكتور «Andre Lemair» أندري ليمير» كوليغ دي فرانس باريس.
- ٨- البروفسور الدكتور «Paolo Merlo» باولو مرلو» جامعة الفاتيكان روما.
- ٩- البروفسور الدكتور «Herbert Nieher» جامعة توبنكن ألمانيا يعمل الآن في جامعة Stellenboisch شتلن بوشن جنوب أفريقيا.
- ١٠- البروفسور الدكتور «Martti Nissinen» مارتي نيسينن» جامعة هيلسنكي فنلندا.
- ١١- البروفسور الدكتور «Mirko Novak» ميركو نوفاك» جامعة برن سويسرا.
- ١٢- البروفسور الدكتور «Helene Sader» هيلانة صادر» الجامعة الأمريكية في بيروت.
- ١٣- بروفسور دكتور «Michael P. Streck» ميشيل شترك» جامعة ليبزك ألمانيا.

ينتسب المؤلفون إلى جامعات أوروبية وأمريكية نعرفهم شخصياً أو من خلال مؤلفاتهم وأبحاثهم في الثقافات القديمة لبلداننا. كتب المقدمة «هربرت نيهير» الذي ميز بين الآراميين السوريين والآراميين في سورية استناداً إلى الوثائق البابلية والآشورية. وقد تفاخر ملوك آشور بشن الحروب على الممالك الآرامية الصغيرة. وقد تبنى الآراميون الخط (الفينيقى) أي الأبجدية التي انتشرت في سواحل بلاد الشام ومناطقها الداخلية، غير أنهم، ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد. كتبوا بأبجدية خاصة بهم. وعبر سنين طويلة انتشرت هذه الأبجدية في مناطق المملكة الآشورية والبابلية. وتعايشت مع الخط المسماري، وأضحت لغة البلاد بلا منازع ولم تستطع الهيروغليفية في آسيا الصغرى أن تزاحم الأبجدية الآرامية، على الرغم من أن بعض الممالك الآرامية استخدمتها في كتاباتها مثل «تل أحمير» عاصمة مملكة «بيت عديني».

وصفت الكتابات الآرامية في مطلع عهدها بأنها كتابات ملكية أي أنها تحكي، قبل كل شيء، سيرة الملوك. ثم ظهرت الأصناف الأدبية الآتية: تقدم النذور إلى المعابد ووصفها ووصف الحروب والمعاهدات. ويضاف إلى كل هذا مجموعة من الأمثال، سطرت في البردي وهي من شمالي سورية أو الجزيرة تصاحبها حكايات وروايات نسبت إلى الكاتب الآرامي المشهور «أحيقار» الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وتضاف أوراق البردي التي وجدت في جزيرة الفيلة في نهر النيل، والتي سطرت حسب التقاليد والأعراف السورية خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

جرت محاولات علمية للتعرف إلى الأساطير الآرامية، لكنها باءت بالفشل لأنها اعتمدت على الفرضيات لا على الحقائق. والمعروف أن مادة الكتابة كانت البردي الذي تلف ولم يبق منه شيء، وبقيت إشارات إلى الأساطير الآرامية في الآداب الأناضولية وبلاد النهرين، استنتجها الباحثون في الآداب والفنون الآرامية قديمها وحديثها. على سبيل المثال: القتال بين رب الطقس (حدد) والأفعى كما صورته لوحة حجرية من «تل عشارا» وكذلك رب الطقس وأسلحته كما هو منقوش في لوحات مدينة شمال، هذا إضافة إلى لوحات «تل خلف» التي تزودنا بنظرة عن الأساطير الآرامية وخاصة لوحة الجوقة الموسيقية الحيوانية، كما تحوي حكاية «أحيقار» عناصر أسطورية، على سبيل المثال، أسطورة «لابو» من بلاد النهرين التي تتمثل بنباتات وحيوانات خرافية، أي بحرافات وحكايات على لسان النباتات والحيوانات.

زد على ذلك أن الآراميين نقلوا ملحمة «جلجامش» إلى الغرب عن طريق اليونان، ونرى على سطوح أعمدة معبد «بل» في تدمر إشارات تدل على معرفة شعر «إنوما إيش» المأخوذ عن أسطورة «أكيثو» التي كانت تقدم خلال احتفالات رأس السنة.

تقدم البقايا الأثرية، أي المواد الأثرية، نظرة أو أمثلة أو معلومات على تطور الفنون عامة والعمارة خاصة في العهد الآرامي، أو منذ وصول الآراميين إلى السلطة في سورية

عامة، كما تسهم في أمر التمييز بين ما هو آرامي وما هو لويّ، ولو أن ذلك صعب للغاية وخاصة في جنوب الأناضول وشمال سورية ويحجم الباحثون عن الخوض فيه. وبالنسبة إلى فن العمارة نميز صنفين: أولهما تأسيس قرى جديدة وتوسيع قرى ومبانٍ قديمة وقد وصفتها الكتابات القديمة التأسيسية، ومثال ذلك ما نجده في كتابات الملك «باناموه الأول» بمدينة شمال (٧٩٠ - ٧٥٠ ق.م). الذي قام بمثل هذه الأعمال، أي بناء عمارات جديدة وتحسين قصور قديمة، وقلده في ذلك الملك «ذكير» ملك حماة الذي وسع مدينة خزازيك نحو عام (٨٠٠ ق.م).

وتمتاز المدن الآرامية الجديدة بمخططها الدائري أو المستطيل وتقوم في وسطها القلعة ولها جدران خارجية كما في مدينة «جوزانا وخذاتو وأرفاد وشمال». وفي بعض الحالات سكن الآراميون مدناً قديمة قائمة مثل «تل برسيب وحلب وخرزك ودمشق» وقد نسب المبنى المعروف باسم بيت «هيلاي» في «تل حلف» وشمال حماة و«تل طعينات» إلى الآراميين.

وعلى الصعيد الفني احتلت صناعة العاج المرتبة الأولى في الفنون الآرامية وعُرف مركزان لهذه الفنون في تل حلف ودمشق. وازدانت جدران القصور الآرامية باللوحات العاجية المزركشة والمزوّقة بالأشكال في جوزن وشمال، ويقال إن لوحات مدينة شمال تأثرت أشكالها بالفن اللويّ بينما تظهر في فنون كركميش التأثيرات الفنية المتنوعة والمكتسبة من التراث القديم والمحلي. وهنا يجب التأكيد أن عدداً من المواقع القديمة التي سكنها الآراميون قد استمرت فيها الثقافات القديمة من القرن التاسع عشر قبل الميلاد. مثل «تل قجرية وتل حلف وتل برسيب وتل آفس وحماة ودمشق». وفيما يتعلق بالتاريخ والجغرافيا فقد أطلق الاسم «آرام» على قبائل بدوية قبل تداول الاسم (آرام) وذلك في حوض الفرات الأعلى والأوسط وفي أواسط سورية وخلال نهاية الألف الثالث ومطلع الألف الثاني قبل الميلاد. وقد ذكر الآراميون في الرسائل التي تعرضت ووصفت النزاع بين البدو والحضر خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وأطلق على البدو اسم (العموريين = الغريبين)

ونسبوا أيضاً إلى (يامينيين = اليمين أو الغرب، وشمال = الشمال أو الشرق) وكذلك السوتين.

انتشر اليمينيون، أي أهل اليمن من أواسط الفرات إلى مدينة ماري في الجنوب وإلى البليخ وحران في الشمال، وقد نفذوا إلى البحر المتوسط عن طريق حلب وقطنا. في حين أن مراع الشماليين (أي الشماليين) قد انتشرت حول الخابور وإلى الشرق والجنوب من ماري ونحو الأعلى حتى بلاد السوتين وامتدت مراعيهم في البادية من جبل بشري حتى الغوطة حول دمشق، واحتكوا مع سكان اللاخ وأوجاريت وهاجموا مدينة جبيل/بيلوس. إضافة إلى القبائل الثلاث المتحدة الرئيسة هذه ضمت القبائل الآرامية عشائر وأفخاذ أخرى أصغر ذكرت في الوثائق البابلية التي تعود إلى القرن التاسع عشر وسميت أحلامو/أغلامو، وأطلقت على البدو في بلاد النهرين وسورية أيضاً، والكلمة هي من مفردات لغاتنا القديمة (أحلام) وتعني أغلام أي غلمان كما في الأوجاريتية والعربية والكنعانية (عولام). استعمل الحضر هذا المصطلح بصيغة الجمع، وغلام في لغة عرب الجنوب تطلق على الغزاة من البدو الذين يقومون بهذا الفعل بأي شكل كان.

وعلى أي حال، كان الأحلامو أيضاً مستقرين جزئياً، وقد نالوا هذا اللقب من التحكم ومراقبة طرق التجارة والمسالك العامة عبر البوادي. وتعايشوا مع السوتين في أواسط الفرات. غير أنهم تنقلوا في أنحاء الجزيرة أيضاً. وتبدل وصفهم كبدو في النصوص خلال القرنين الخامس والرابع عشر قبل الميلاد. خاصة ضمن محيط تواجد الدولة الميتانية، التي قضى عليها في الجزيرة الملك الحثي شوبي ليلوما الأول (١٣٥٠/٥٥ - ١٣٢٠ ق.م). مؤسس الإمبراطورية الحثية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد. فتراجعت المملكة الميتانية إلى مملكة صغيرة في بلاد خاني جلبات/هاني جلبات التي احتلها الآشوريون فيما بعد نحو عام (١٢٠٠ ق.م).

أدى النزاع بين المملكة الميتانية السابقة ومصر والحثيين والآشوريين إلى تناقص فعلي في الاستيطان بالجزيرة ودفع سكانها ليعودوا إلى حالة البداوة وقد شجعها على هذه العودة

دمار مدن عدة ميتانية ومنها مدينة إيمار خلال الربع الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد. تراجع الاستيطان في الجزيرة العليا ولم يترافق بانخفاض عدد السكان، فالمملكة الميتانية حكمت البدو النازحين إلى الجزيرة من بلاد الشام، غير أن هذا الوضع تغير بعد عام (١٢٠٠ ق.م). حينما تمكن الآشوريون من بسط نفوذهم على مناطق غربي الفرات منذ النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد. وفيما يتعلق بالأحلامو فقد ذكروا في ألواح / رقم مدينة إيمار مسكنة عند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ودونت أسماء لثلاثة أشخاص نسبوا إلى الأحلامو، ويضاف إلى ذلك أن رُسلًا من السوتيين قد اشتكوا من أن الأحلامو قد هاجمهم في مدينة قطنا. والسوتيون الذين قاموا بالغارة على البدو ربما كانوا من قطنا.

إنّ ذكر الآراميين بشكل واضح ودقيق أتى من قلب بلاد آشور. إذ عند منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ادعى الملك الآشوري تحلات فلصر الأول (١١١٤ - ١٠٧٦ ق.م). أنه عبر الفرات بسرعة لمحاربة الآراميين دون أن يكون قادراً على التغلب عليهم وإخضاعهم لسلطته.

وبناءً على ذلك يكون الآراميون منتشرين جغرافياً في أواسط الفرات، في سورية إلى الغرب من جبل بشري وفي تدمر وفي بابل، لذلك يجب أن ننظر إلى الآراميين مع قبائل أخرى ذكرناها سابقاً، على أنهم في هذه المناطق جزء من السكان، وليسوا مهاجرين.

إنّ انتشار الآراميين في سورية هو بلا جدال مختلف عما يصفه الباحثون، أو عما يذكر في البحوث إذ توجد معطيات أخرى بالأساس، تقرر بأن الآراميين كانوا يحتلون الدرجة الرئيسة في سورية وعلينا الأخذ في الحسبان الاختلاف بين مناطق انتشارهم في الجزيرة وشمال وجنوب وشرق وغرب ووسط سورية، وفي هذا البحث تمتد سورية في الشرق إلى البحر المتوسط غرباً ومن جنوب الأناضول في الشمال حتى دمشق في الجنوب ولبنان في الغرب وكذلك فلسطين. أما المناطق إلى الشرق من نهر الأردن فهي مستثناة وهذا يشمل مناطق قلب الممالك الآرامية.

اللغة والثقافة الآرامية

لم ينسَ الباحثون اللغة والثقافة الآرامية، ففي الغرب كانتا معروفتين حسب نصوص كتاب العهد القديم (على سبيل المثال كتاب دانيال) إضافة إلى انتشار تراجم كتاب «أحيقار» في سورية، أي في الغرب من منطقة الجزيرة. ومازالت الآرامية متداولة في معلولا في أواسط سورية وتنسب إلى الآرامية الغربية، أمّا في طور عابدين فتنسب إلى الآرامية الشرقية.

لقد تعزز تحليل المراجع الآرامية، حينما تمكن الباحث الفرنسي (باريليتي) من قراءة الكتابة التدمرية في عام (١٧٥٤م) والفينيقية عام (١٨٥٨م).

بدأ البحث في الثقافة الآرامية بسورية القديمة في مطلع القرن العشرين بعد قراءة الخط المسماري في القرن التاسع عشر، الذي أجاز النظر في النصوص الآرامية الباحثان: A. Schnada = آ. شنادا و M. Streck = م. شترك، وهما من الأوائل في تقديم دراسات آرامية تتعلق بالآرامية في سورية القديمة استمر العمل بها وازدادت المراجع حولها ونذكر على الأخص دراسة Schiffer شيفر وكربلنك Kraeling و A. Duppont Sommer دبون سومر، وتواصلت الأبحاث من: F. Rosen روزنتال و R. O'callaghan روكالاهان في الآرامية وآرام النهرين وخاصة في العمارة، وقد تناول الباحث: M. F. Unger الآراميين وإسرائيل في دراساته وكذلك الآراميين في دمشق.

ازدادت دراسة النصوص الآرامية، وخاصة الآشورية والآرامية التي شملت دراسات مقارنة قامت «هيلانة صادر» التي درست العمارة الملكية في سورية وليبينسكي Lipiniski حول الممالك الحثية الجديدة بتأليفها، وراين هولد G.G.G. Reinhold الذي عني بالعلاقات بين ممالك إسرائيل والآراميين ونَدَر بونشيا S. Ponchio دراساته للآراميين غربي الفرات، وآياسنك A. Josink للممالك الحثية

الجديدة، وقدم ديون P. E. Dion وليبينيسكي بحثاً شاملة جامعة حول تاريخ الآراميين وسياساتهم ومجتمعاتهم وقوانينهم ودياناتهم في سورية. ومنذ منتصف القرن العشرين ازدادت دراسة النصوص الآرامية وخاصة اللغوية منها وكذلك التنقيبات الآرامية وما كشفت عنه من عمائر وغيرها، أي أن الدراسات التي تتعلق بالتنقيب في المواقع الآرامية توسعت، ونذكر منها على سبيل المثال تل «عين دارا».